

شاهد قبر من أول القرن السابع الهجري لإمام المقام الشافعي بالمسجد الحرام (٥٩٨ - ٦٠٤هـ)

دراسة تاريخية حضارية

د. محمد بن هزاع الشهري
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى

تعد شواهد القبور إحدى مصادر التاريخ المهمة، فهي بالإضافة إلى ما تحويه من معلومات تاريخية عن حياة الأفراد ومكانتهم العلمية والاجتماعية تعد شاهداً موثوقاً بدلالاته على مستوى الحياة الاقتصادية والعلمية للفترة التي كتب فيها الشاهد، من خلال نوعية الخط وجماله وحسن تنظيم عباراته، فضلاً عن دلالتها وفصاحتها وقوة تأثيرها في القارئ الذي يتطوع بعد قراءته لمحتواها بالدعاء إلى الله - عز وجل - أن يمن بفضله وكرمه بالرحمة والغفران للمتوفى.

ومن الشواهد المكية ما كتب عليه طلب الترحم والدعاء لصاحبه(١)، وتكشف هذه المعلومات بعض عادات المجتمعات في دفن الموتى وتقديم العزاء، ولا سيما المجتمعات الإسلامية التي يحث فيها الدين الإسلامي على تكريم الموتى والسير في جنائزهم والدعاء لهم.





(١) وكالة الآثار والمتاحف، أحجار المعلاة الشاهدية بمكة المكرمة، الرياض: وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ١٤٢، ٤٣٠، ٥٦٨. والشاهد رقم (١١٢، ٣٩٣، ٥٢١). الزهراني، عبدالرحمن بن علي، كتابات إسلامية من مكة المكرمة، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص١١٢، ٣٥٥.

وكثيراً ما يعمد بعض المحترفين لنقش شواهد القبور في مكة المكرمة إلى نقش أسمائهم في آخر الشاهد[٢] كنوع من الدعاية لمهارتهم الخطية والبيانية، بالإضافة إلى نوعية المادة المدونة عليها العبارات التأبينية وكبر حجمها أو صغره، مما يغري بالإقبال على مهنتهم عند الحاجة إلى مثل هذا العمل الذي اعتاد عليه الناس في العالم الإسلامي من القرن الأول الهجري وحتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري[٣].

وتبرز هذه الظاهرة إذا كان المدفن مشهوراً كمقبرة المعلاة التي تتوسط مكة المكرمة، التي شهدت منذ فجر الإسلام تدفق المئات بل الآلاف كل يوم في أفواج تتسابق لحمل الموتى من السكان أو الحجاج الوافدين من مختلف الأقطار، أو المشي في جنائزهم عقب كل فريضة من المسجد الحرام إلى المقبرة التي تبعد عن المسجد الحرام بأكثر من الميل الواحد؛ طلباً للمثوبة التي وُعِدَ بها المشاركون من المسلمين في المواكب الجنائزية[٤] في كل زمان ومكان.

وقد ضمت مقبرة المعلاة - التي كان هذا الشاهد محلّ الدراسة قائماً فيها في حدود سنة ٨٣٢هـ - كثيراً من الشواهد التي تعود إلى قرون مختلفة. وقد استطاع الفاسي أن يستمد منها جزءاً من المعلومات التي قدمها عن سير أعلام عاشوا في مكة المكرمة وماتوا ودفنوا فيها، في كتابه المشهور "العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين"، ومنها على سبيل المثال شاهد مؤرخ في ٥٤٧هـ، وثانٍ في سنة ٥٧١هـ،

---

(٢) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد (ت٨٣٢هـ)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، ج١، ص ٤٢٣، ٤٣٤، ج٣، ص٢٤٠.

(٣) الفاسي، المصدر نفسه، ج١، ص٤٢٣، ج٣، ص ٣١، ٢٤٠، ج٥، ص ٢٣١، ٤٠٠.

(٤) ابن حنبل، أبو عبدالله الإمام أحمد (ت٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد، الرياض، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م. مسند أبي سعيد الخدري، الحديث ١١٢٣٦، ص٧٩٤. البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٠هـ). صحيح البخاري، الرياض، دار السلام للنشر والتوزيع ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، كتاب الجنائز، باب من انتظر حتى تدفن، الحديث رقم ١٣٢٥، ص٢٦٠.

وثالث في سنة ٦١٢هـ، ورابع في سنة ٦٢٤هـ، وخامس في سنة ٦٤٤هـ، وسادس في سنة ٧٤٩هـ(٥).

كما ذكر أسماء بعض المحترفين لنقش الشواهد من المكيين، فعد منهم عبدالرحمن بن أبي حرمي المتوفى سنة ٦٤٥هـ، وابن أخيه بركات بن أبي حرمي، وعبدالسلام المؤذن(٦). وكنت أتمنى لو ذكر الفاسي نوع الخط في كل شاهد أو جمع نصوص الشواهد التي أدركها في مقبرة المعلاة، ولعل في الكتاب الذي نسبه إلى جمال الدين الشيبي وسماه "الشرف الأعلا في ذكر قبور مقبرة المعلا"(٧) شيئًا مما أهمله الفاسي رغم حسِّه الأثري، ودقته العلمية التي انفرد بها عن مؤرخي مكة المكرمة. بيد أن هذا لا يعدو أن يكون سجلاً لبعض الأسماء والأنساب ونصوص من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، هذا فضلاً عن تواريخ الوفاة. وتحتاج دراستها إن أمكن العثور عليها مجتمعة إلى معرفة نوع الخط الذي كتبت به، وطريقة الحفر الذي نفذ بها، فضلاً عن الإبداع الفني الذي يتميز به الخطاطون عن بعضهم وإن كانوا في زمن وبلد واحد. وسوف تعين صور الشواهد التي صدرت عن وكالة الآثار والمتاحف بوزارة التربية والتعليم في المجلد القيم الذي يحمل عنوان: "أحجار المعلاة الشاهدية بمكة المكرمة" على تدعيم ما ذكره المؤرخون أو استكمال ما أغفلوه من تراجم بعض من دفن في مقبرة المعلاة وأوصافهم.

وقد تعكس هذه الدراسة بعض أوضاع الحجاز التي شهدت - بعد انتقال الخلافة الإسلامية إلى دمشق ثم إلى بغداد ثم إلى القاهرة، ومنها إلى إسطنبول - تقلبات سياسية سريعة أثرت بطبيعة الحال

(٥) الفاسي، المصدر السابق، ج١، ص٤٢٣، ج٤، ص٨٢، ج٥، ص٢٣١، ٢٧٥، ٤٠٠، ج٦، ص١٨٢، ج٧، ص٢٨٦.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٤٢٣، ج٣، ص٢٤٠، ج٥، ص ٢٣١، ٤٠٠.

(٧) نفسه، ج٨، ص٢٠٧.



في الأوضاع الأمنية والاقتصادية والثقافية. وهو ما أكدته كتب الرحلات التي وصفت بدقة الأوضاع المضطربة للبلاد المقدسة، فضلاً عما سجله المؤرخون عن الوقائع والأحداث التي عاصروها أو سمعوا بها.

وتعد الدراسة المميزة التي قام بها الدكتور عبدالرحمن بن علي الزهراني عن مئة شاهد من الشواهد المكية باكورة الدراسات التي يرجى القيام بمثلها في هذا المجال.

الحجاز بين التبعية للعباسيين والتقرب من الفاطميين في القرنين الرابع والخامس الهجريين

إذا كان فيما تحتويه شواهد القبور دلالة على مستوى الحياة الفكرية في البلد الذي نقشت فيه تلك الشواهد حتى عُدّ بعضها لجودة خطه وحسن تنظيمه وشمول عباراته التأبينية تحفاً فنية تقتنيها المتاحف الكبرى، وتعرضها دور العرض العالمية[٨].

فمما لا شك فيه أن هذا الشاهد الذي تركز عليه هذه الدراسة دليل قوي على ذلك الرأي الوجيه، فهو مؤرخ في سنة ٦٠٤هـ، ونقش في منطقة الحجاز من شبه الجزيرة العربية، وزاد من أهميته أنه من مكة المكرمة - شرفها الله تعالى - التي شهدت تذبذباً في ولائها السياسي طيلة القرنين الرابع والخامس الهجريين، إذ إن الدولة الفاطمية نازعت بقوة الخلافة العباسية السلطة على الحرمين الشريفين، خاصة بعد وصولها إلى مصر في سنة ٣٥٨هـ بوقت قصير[٩]. وعد ذلك من أولويات السياسة الخارجية للدولة الفاطمية بقصد تدعيم

هذا الشاهد دليل قوي على ذلك الرأي الوجيه فهو مؤرخ في سنة ٦٠٤هـ

(٨) جمعة، إبراهيم، تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى، دار الفكر العربي، ص٨٩. غالب، عبدالرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت، جروس برس، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٢٤٤.

(٩) السباعي، أحمد، تأريخ مكة المكرمة، ط٦، مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٩١، ١٩٣.

مكانتها في العالم الإسلامي[١٠]، ونجح حكامها أحياناً ببذل الأموال الطائلة[١١] في استمالة بعض حكام الحجاز المستقلين؛ فالتزموا في الشهر الواحد لشكر بن أبي الفتوح بمبلغ ثلاثة آلاف دينار، مع خِلع وخيول تصل بها السفن من مصر مرتين في السنة بدءاً من سنة ٤٢٠هـ[١٢].

وكان لذلك آثار سيئة على الحياة العلمية والاقتصادية في الحجاز التي كان الاستيلاء عليها شرطاً من شروط الخلافة لكلا المتنافسين[١٣]، وقد وصل الأمر بهذه البلاد إلى مستوى متدن طيلة القرون الرابع والخامس والسادس الهجرية إثر تفرق أعلامً مكة المكرمة في البلدان الإسلامية نتيجة الصراع السياسي والضعف الاقتصادي، ولم يلمع في مكة طيلة هذا الوقت إلا بعض أفراد كانت بيوتهم تتخصص في طلب العلم، وتتوارثه كما تتوارث وظائف الخطابة والإمامة في المسجد الحرام[١٤].

ولا أدل على سوء الحالة الاقتصادية في هذا العصر - الذي ندرس فيه إحدى الوثائق المهمة - من لجوء أمير مكة آنذاك مكثر بن عيسى (٥٧١ - ٥٩٧هـ) إلى إعادة فرض الرسوم على الحجاج من أهل مصر والمغرب، بواقع سبعة دنانير ونصف الدينار المصري[١٥]

(١٠) ماجد، عبدالمنعم، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، ط٢، الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٧٦، ص١٦١، ٢١٩. سرور، محمد جمال الدين، سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص٣.

(١١) المناوي، محمد حمدي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠م، ص٢١١. ماجد، المرجع السابق، ص٢٢١، ٢٢٥. سرور، المرجع السابق، ص٢٤ - ٣١.

(١٢) ماجد، المرجع السابق، ص٢٢٥.

(١٣) السباعي، المرجع السابق، ص١٩٤.

(١٤) نفسه، ص٢١٧.

(١٥) الدينار: عملة ذهبية عرفها العرب في البلاد المفتوحة، وتعاملوا بها حتى عُربت الدواوين، وضربت العملة في الدولة الأموية، وظل معمولاً بها في الدولة العباسية والدويلات المتفرعة عنها، ومنها الدولة الأيوبية التي قام صلاح الدين الأيوبي بسك النقود الذهبية والفضية والنحاسية. انظر: فهمي، عبدالرحمن، النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة، المكتبة الثقافية، ١٩٦٤م، ص٨، ٦٩.



على كل شخص[١٦]، تستوفى من الحجاج في عيذاب أو جدة، ومن عجز عن الدفع منع من الحج[١٧]، الأمر الذي ألجأ السلطان العادل صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤ - ٥٨٩هـ) إلى تعويض شريف مكة عن تلك الرسوم التي تأصلت عند حكام مكة من الأشراف طيلة حكم الدولة الفاطمية[١٨] بثمانية آلاف أردب قمح[١٩] في سنة ٥٧٢هـ[٢٠]، وقيل: بألفي دينار وألف أردب قمح[٢١] تساق له سنوياً من مصر.

أما غيرهم من حجاج المشرق فإن الجباية لتلك المكوس كانت تتم حول مكة المكرمة، حيث ذكر الفاسي في معلومة أثرية جيدة أنه أدرك آثاراً بوادي نخلة الشامية فيما بين التنضب وبشرا[٢٢]، بناء على هيئة الدروب في مسيل الوادي، كان يمكس عنده الحجاج من أهل العراق[٢٣]، وكان ذلك في ولاية قتادة بن إدريس لمكة المكرمة ما بين سنتي ٥٩٧ - ٦١٧هـ.

(١٦) الفاسي، المصدر السابق، ج٧، ص٢٧٨. السباعي، المرجع السابق، ص٢٢٤.

(١٧) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير ٥٧٨ - ٥٨١هـ، ط٢، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص٢٨. الفاسي، المصدر السابق، ج٧، ص٢٧٨.

(١٨) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٨.

(١٩) الأردب: مكيال ضخم يسع ٢٤ صاعاً، ويوافق ١٥٠ كجم من القمح أو ١٣٠ كجم من الشعير أو ١٤٠ كجم من الذرة، أو ١٥٥ كجم من الفول، أو ١٥٧ كجم من العدس. انظر: فهمي، سامح عبدالرحمن، المكاييل في صدر الإسلام، مكة المكرمة، المكتبة الفيصلية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٤١.

(٢٠) الفاسي، المصدر السابق، ج٧، ص٢٧٨. الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص٣٦٨.

(٢١) الكردي، محمد طاهر، كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ٥ أجزاء، مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ج٢، ص١٧٩.

(٢٢) قال عاتق بن غيث البلادي: إن نخلة الشامية من ميول جبال الهدأة بالطائف إلى وادي المحرم، ومنه إلى السيل الكبير. انظر: معالم مكة التاريخية والأثرية، ط٢، مكة المكرمة، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٩٩.

(٢٣) الفاسي، العقد، ج٧، ص٦١.

وقد لمس ابن جبير في سنة ٥٨٠هـ إعجاب الحجاج ودعاءهم بالخير لصلاح الدين الذي أزاح عنهم ثقلاً مادياً كان يحول دون أداء فريضة الحج لكثير من المسلمين[٢٤]، وذلك عند الدعاء لصلاح الدين ولولي عهده من على منبر المسجد الحرام سنة ٥٨٠هـ بعد الدعاء للخليفة العباسي أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بالله (٥٧٥ – ٦٢٢هـ)، وشريف مكة المكرمة مكثر بن عيسى[٢٥]. وقد أعيدت بعض مظاهر هذه المكوس في أواخر العصر الأيوبي[٢٦]، ثم ظهرت مرات عدة في العصر المملوكي (٦٤٨ – ٩٢٣هـ)، كما في السنوات ٧٥٧هـ، ٧٦٦هـ، ٧٦٩هـ، ٧٧٢هـ، ٨٠٤هـ، ٨٢٨هـ، ٨٣٠هـ، ٨٣٤هـ، ٨٤٠هـ، ٨٤٣هـ، وأخيراً في سنة ٨٨١هـ[٢٧].

وقيل: إن الأساس في هذا كله سماح الدولة الفاطمية لأتباعها من أشراف مكة بالتمادي في هذه المظالم[٢٨] على غرار ما كانت تفعله برعاياها في المغرب[٢٩]، وقد أجمع المسلمون على حُرمتها فضلاً عن شناعتها، وهم لا شك شركاء في وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لأنها مما يدخل في معنى الحديث الذي رواه الإمام مسلم وغيره عن النبي ﷺ الذي قال: "من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"[٣٠].

(٢٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص٦٦.
(٢٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص٦٦.
(٢٦) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص ٣١٤، ٣٧٩.
(٢٧) الفاسي، العقد، ج٧، ص ٢٧٧، ٢٧٨. السباعي، المرجع السابق، ص١٨٠. الكردي، المرجع السابق، ج٢، ص ١٧٩ – ١٨٣.
(٢٨) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٨. السباعي، المرجع السابق، ص٢٠٧.
(٢٩) سالم، عبدالعزيز، المغرب الكبير في العصر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص٦٠٥.
(٣٠) النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ)، صحيح مسلم، الرياض، مكتبة الرشد ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، كتاب الزكاة، الحديث رقم ٦٩، ص٢٤١.



ولأهمية الوظيفة التي كان يقوم بها صاحب هذا الشاهد في المسجد الحرام في آخر العصر العباسي الثالث (٤٤٧ - ٦٥٦هـ)، وهي الصلاة بأتباع المذهب الشافعي عند مقام سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ما بين سنتي ٥٩٨ - ٦٠٤هـ. فإن الأمر يستوجب أولاً التعرف على الشروط الواجب توافرها في الإمام من وجهة نظر الشرع الشريف، وهي: الإسلام، والعقل، والبلوغ، والذكورة، وحسن التلاوة، وخلوه من الأمراض التي تنقض الطهارة في الصلاة، وسلامته من العيوب النطقية، وقدرته على أداء حركات الصلاة بسهولة ويسر، هذا فضلاً عن سلامته من البدع والفسوق[٣١].

كما أن الأمر يستوجب منا التعرف على تاريخ حدوث هذه الوظيفة (إمام المقام) مع الإلمام بتاريخ ظهور المقامات المتعددة في الحرمين الشريفين وعلاقة ذلك بالصراع السياسي الذي عرفته بلاد الحجاز بعد انتهاء القرون المفضلة من التاريخ السياسي للدول الإسلامية.

وليس في تاريخ الأزرقي المتوفى سنة ٢٥٠هـ تقريباً، ولا أخبار مكة للفاكهي المتوفى بعد سنة ٢٧٢هـ أدنى إشارة إلى هذه المقامات، مع أنهما من أول كتب البلدانيات وأشهرها، وأخبارهما محصورة في ذكر ما يتعلق بمكة شرفها الله تعالى. وفي ذلك ما يدل على أن أرض الحرمين بقيت نقية من هذه البدع حتى منتصف القرن الرابع الهجري، حين بدأ الفاطميون وهم في المغرب يساندون كبير الأشراف الحسينيين جعفر بن محمد بن حسين الذي استقل بحكم مكة المكرمة سنة ٣٥٨هـ[٣٢]. وليس من قبيل المصادفة أن يضاف في عهده إلى سنة الأذان في المسجد الحرام عبارة "حي على خير العمل"[٣٣]، وهو

(٣١) الجزيري، عبدالرحمن، كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، ٥ أجزاء، ط٢، القاهرة، المكتبة التجارية، ج١، ص٤١٣.

(٣٢) السباعي، المرجع السابق، ص١٩١. سرور، المرجع السابق، ص٢٤.

(٣٣) السباعي، المرجع السابق، ص١٩٣.

النداء المعمول به في الأذان عند الفاطميين[٣٤]، وأغلب فرق الشيعة وخاصة الزيدية[٣٥]. فقد افتتح جوهر الصقلي عهد الفاطميين في مصر بإلزام المؤذنين في جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون بإضافة هذه العبارة إلى الأذان[٣٦] فور وصوله إليها سنة ٣٥٨هـ.

وقد تجرأ هذا الثائر، فأبطل ذكر اسم الخليفة العباسي من الخطبة في مكة المكرمة، ودعا للفاطميين في تلك السنة[٣٧]. بيد أن القرامطة أعادوا الخطبة للعباسيين في سنة ٣٥٩هـ[٣٨] في عهد الخليفة المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣هـ)، في وقت اقتصر فيه النفوذ الفاطمي على المدينة المنورة[٣٩]، بينما دامت الخطبة للعباسيين في مكة إلى سنة ٣٦٣هـ[٤٠].

وبهذا يتقوى الرأي الذي قال به حسين عبدالله باسلامة من أن المقامات أحدثت في المسجد الحرام في القرنين الرابع والخامس الهجريين، واستدل لذلك بعدم ذكر ابن عبدربه لها عند وصفه الدقيق للمسجد الحرام في حدود سنة ٣٢٨هـ، بينما ذكرها ابن جبير في رحلته التي حج فيها سنة ٥٧٨هـ[٤١]، وأيده في ذلك مؤرخ مكة في

---

(٣٤) نفسه، ص ١٩٣، ٢٠٦.

(٣٥) الشوكاني، محمد بن علي (ت١٢٥٠هـ)، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، ٣ أجزاء، تحقيق: قاسم غالب أحمد وآخرون، ط٢، القاهرة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، ج١، ص٢١٦.

(٣٦) القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر الشافعي (ت ٤٥٤هـ)، تاريخ القضاعي، تحقيق: جميل عبدالله المصري، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، مركز البحوث وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٥٦٥.

(٣٧) السباعي، المرجع السابق، ص١٩٣.

(٣٨) نفسه، ص١٩٤.

(٣٩) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٥١.

(٤٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٥٢.

(٤١) باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ط٢، القاهرة، دار مصر للطباعة والنشر، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، ص٢٥٣.



العصر الحديث أحمد السباعي الذي قال: إنها ضمن بدع كثيرة أحدثت في هذا العصر[٤٢]. وقد أرجع الزركشي حدوث المذاهب في المسجد الحرام إلى رفض الناس الصلاة خلف الإمام المبتدع، مما دعا حكام مكة المكرمة إلى السماح للناس باتخاذ الأئمة لأنفسهم[٤٣].

ولدينا من الأدلة الموثوق بها ما يوجب القول: إنها أحدثت في نهاية النصف الأول من القرن الخامس الهجري؛ لأنني طالعت "سفر نامة" لناصر خسرو الذي زار مكة سنة ٤٤٢هـ، فلم أجد للمقامات ذكرًا في حديثه المفصل عن الحرم المكي الشريف[٤٤]، ولم يشر أبو عبيد البكري الذي توفي سنة ٤٨٧هـ في كتابه "المسالك والممالك" إلى شيء من هذا، كما أنها لم تحدث في زمن واحد[٤٥]، فقد جاء في ترجمة عبدالله بن عمر القيرواني أنه أمّ بمقام إبراهيم الخليل قبل نهاية القرن الخامس الهجري، وهو أول من يصلي من أئمة الحرم قبل المالكية والحنفية والزيدية[٤٦].

ويتقوى هذا الرأي بأن النفوذ الفاطمي في الحجاز قد تدعم بالنفوذ البويهي الذي جرد الخليفة العباسي من كل سلطانه وحقوقه طيلة الفترة البويهية (٣٣٤ - ٤٤٧هـ)[٤٧]، وقد جاء ما يفيد بأن العلاقة بلغت أوجها بين عضد الدولة البويهي والعزيز بالله الفاطمي

(٤٢) السباعي، المرجع السابق، ص٢٢٠.

(٤٣) الزركشي، محمد بن عبدالله (٧٤٥ - ٧٩٤هـ)، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق: أبو الوفا مصطفى المراغي، ط٢، القاهرة، وزارة الأوقاف المصرية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص٣٦٦.

(٤٤) خسرو، أبو معين الدين ناصر (ت٤٤٤هـ)، سفر نامة ٤٣٧ - ٤٤٤هـ، ترجمة: يحيى الخشاب، ط٢، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص ١٢٩ - ١٣٣.

(٤٥) الفاسي، العقد، ج٢، ص٥٤٩. باسلامة، المرجع السابق، ص٢٥٨.

(٤٦) الفاسي، العقد، ج٥، ص٢١٨.

(٤٧) خسرو، المصدر السابق، ص ٥ - ٩. حسن، إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ط٨، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ج٢، ص٥٩. ماجد، المرجع السابق، ص١٥٩ - ١٦١.

في أول عهد الفاطميين بمصر[٤٨]. وقد حاول الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧هـ) ثني شريف مكة سنة ٤٦٢هـ عن الدعاء للفاطميين، وإلغاء النداء بحي على خير العمل في الأذان من المسجد الحرام، نظير عشرين ألف دينار نقداً، وعشرة آلاف سنوياً، ووعِدَ شريف المدينة المنورة بنصف هذا المبلغ إذا فعل ذلك[٤٩]، ومع هذا فقد عاد الأمر سنة ٤٦٧هـ إلى ما كان عليه من قبل[٥٠].

وقد سار السلطان صلاح الدين الأيوبي على النهج نفسه، فأمد شريف مكة أولاً بالمال، ثم كتب له كتاباً ينهاه فيه عن ظلم الحجاج ونشر البدع في أرض الحرمين الشريفين[٥١]، ثم عمد أخيراً بعد فشل الإغراءات التي قدمها من قبل إلى تولية أخيه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ولاية مكة في سنة ٥٨١هـ، فمنع الأذان بحي على خير العمل، وقتل جماعة من المفسدين، وضرب فيها الدنانير والدراهم باسم السلطان صلاح الدين[٥٢]. وقد تتابعت ولاية الأيوبيين وأحياناً الرسوليين في الأوقات التي رأوا فيها ضرورة لإدارتها من قبلهم، ولا سيما أنها شهدت نزاعاً مريراً في هذا العصر[٥٣] بين الأيوبيين والرسوليين ومن يساندهم من أشراف مكة.

أما صفة المقامات التي تأكد حدوثها في أوقات مختلفة من القرن الخامس، فيصف ابن جبير الصلاة فيها سنة ٥٧٩هـ بقوله: "إن للحرم أربعة أئمة سنية وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية، وأشراف أهل هذه البلدة على مذهبهم ... وهم روافض سبابون".

(٤٨) ماجد، المرجع السابق، ص١٦١، ٢٢٢.
(٤٩) الفاسي، العقد، ج١، ص٤٤١، ج٢، ص٣٦٢.
(٥٠) الفاسي، الشفاء، ج٢، ص٤٦٢.
(٥١) انظر نص هذا الكتاب عند: الفاسي، العقد، ج٧، ص٢٧٨.
(٥٢) الفاسي، الشفاء، ج٢، ص٣١٥.
(٥٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٣١٦ - ٣١٨.



١ - فأول الأئمة السنية الشافعي، وهو المقدم من الإمام [الخليفة] العباسي، وهو أول من يصلي، وصلاته خلف مقام إبراهيم عليه السلام إلا صلاة المغرب، فإن الأربعة الأئمة يصلونها كل بإمامه في وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها[٥٤]. ثم يصف ما يحدث من سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة حتى إن الغريب يحتار إلى أي فرقة يتبع. ثم أُمِرَ باجتماعهم في صلاة المغرب على الإمام الشافعي في سنة ٨١١هـ. ثم أُمروا في عهد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤هـ) بالرجوع إلى ما كانوا عليه[٥٥]، فحدث التشويش الذي أدى بالقائمين على أمر المسجد الحرام في العصر العثماني إلى إعادة النظر في ذلك سنة ٩٣١هـ[٥٦].

٢ - وثاني أئمة أهل السنة المالكي، ويصلي قبالة الركن اليماني، وله في زمن ابن جبير محراب حجر يشبه محاريب المساجد المبنية على جوانب الطرق[٥٧]، وقد جاء ما يفيد أنه مما أحدث في المسجد الحرام سنة ٤٩٧هـ[٥٨]، وقد وسع المصلى في العصر المملوكي[٥٩]، والعثماني[٦٠] حتى اقتطع ما بني عليه وعلى بقية المقامات جزءاً من المطاف. (الصورة رقم ١)، ومن الغريب أن هذا الترتيب في صلاة الأئمة قد اختلف في سنة ٧٩٠هـ عما ذكره ابن جبير سنة ٥٨٠هـ، حيث تقدم الحنفي على الإمام

(٥٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص٧٠.

(٥٥) ابن ظهيرة، جمال الدين محمد بن جارالله (كان حياً سنة ١٠٢٩هـ)، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، ط٣، مكة المكرمة، مكتبة الثقافة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ص٢١٤. باسلامة، المرجع السابق، ص٢٥٨.

(٥٦) رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين، القاهرة، دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، ج١، ص٢٥١.

(٥٧) ابن جبير، المصدر السابق، ص٧٠.

(٥٨) باسلامة، المرجع السابق، ص٢٥٨.

(٥٩) الفاسي، الشفاء، ج١، ص٣٩١. ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص٢١٢.

(٦٠) رفعت، المرجع السابق، ج١، ص٢٥١.

المالكي في الفجر والظهر والعصر والعشاء[٦١]، ثم تقدم كذلك في صلاة المغرب في سنة ٩٣١هـ[٦٢]، وما بعدها.

٣ - أما المقام الحنفي فيصلي إمامه قبالة الميزاب، وكان له في زمن ابن جبير بناء متميز عن بقية المقامات لأسباب تستمد قوتها المادية والسياسية من كثرة أتباعه من خارج حدود الدولة العباسية[٦٣]، وكان حدوثه في المسجد الحرام متأخراً عن المقام المالكي، فإن أقدم ذكر له كان في سنة ٥٢٩هـ[٦٤].

وقد جاء ما يفيد بأن الدعم الذي كان يقف وراء إمام هذا المذهب في زمن ابن جبير تقوى في العصر المملوكي أيضاً، فقد بني عليه في سنة ٨٠٢هـ بناء يخالف ما كانت عليه بقية المقامات التي اقتصر كل منها على إسطوانتين من حجر عليهما عقد فيه عارضة من الخشب لتعليق قناديل الزيت، وأنكر كثير من العلماء تمييز هذا المقام بظلة كبيرة محمولة على أربعة أعمدة، بالإضافة إلى كبر المساحة التي اقتطعها من المطاف، وقد وجد لها من دافع عنها وحماها من أتباع السلطة المملوكية[٦٥]، حتى هدمت في أوائل عهد الدولة العثمانية. وأبدلت في سنة ٩٤٩هـ ببناء لا يقل عنها في الإضرار بالمطاف[٦٦]، ثم بني فوقه ظلة للمبلغين.

٤ - أما المقام الحنبلي فلم يعرف في المسجد الحرام إلا في سنة ٥٤٠هـ[٦٧]، وقد ذكره ابن جبير في سنة ٥٨٠هـ، وقال: إن موضعه ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ولم يكن له آنذاك

(٦١) ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص٢١٣.

(٦٢) ابن ظهيرة، المصدر نفسه، ص٢١٣. رفعت، المرجع السابق، ج١، ص٢٥١.

(٦٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٧٠ - ٧١.

(٦٤) الفاسي، العقد، ج٤، ص٥٤٩.

(٦٥) الفاسي، الشفاء، ج١، ص٣٩٢.

(٦٦) ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص٢١١.

(٦٧) باسلامة، المرجع السابق، ص٢٥٨.



بناءٌ يميزه[٦٨]، ثم صار له في العصر المملوكي عقد يرتكز على إسطوانتين من الحجر كبقية المقامات[٦٩]، وقد أبدل في العصر العثماني بظلة محمولة على أربعة أعمدة من الحجر المثمن، وذلك في حدود سنة ٩٣٠هـ[٧٠]، وله كبقية المقامات محراب مجوف فيما بين الإسطوانتين الأماميتين. (الصورة رقم ١).

ولأهمية هذا الموضوع وشناعة ما كان يحدث بسببه للمصلين في المسجد الحرام الذي كان منزهاً في القرون الأولى من هذا العمل، نذكر إنكار ابن جبير له، وعد الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢هـ وهو مالكي المذهب هذا الفعل ضلالاً في الدين؛ لما فيه من المنكرات التي لا تخفى إلا على من غلب عليه الهوى، وذكر كذلك إنكار العلماء لهذه البدعة قديماً وحديثاً.

وقد بيَّن استجابة السلطان المملوكي فرج بن برقوق في سلطنته الثانية (٨٠٨ - ٨١٥هـ) لنصيحة بعض العلماء، فأمر في سنة ٨١١هـ بجمع الناس في صلاة المغرب على إمام واحد، ولكن الأمر عاد إلى حاله في سنة ٨١٦هـ[٧١].

ثم ذكر في النهاية أن أبا القاسم عبدالرحمن بن الحسين بن الحباب المالكي أفتى في سنة ٥٥٠هـ بمنع الصلاة بأئمة عدة وجماعات مترتبة بحرم الله تعالى، وعدم جوازها على مذاهب العلماء الأربعة، فيا للعجب كيف أمكن لهذه البدع أن تستمر في حرم الله بعد هذه الفتوى التي أنكرت هذا العمل المبتدع؟

(٦٨) ابن جبير، المصدر السابق، ص٧١.
(٦٩) الفاسي، الشفاء، ج١، ص٣٩١.
(٧٠) ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص٢١٢.
(٧١) الفاسي، الشفاء، ج١، ص٣٩٤.

الأصل في الإمامة في المسجد الحرام

تبين مما سبق أن ظهور المقامات في المسجد الحرام قد جاء مع بداية تنامي النفوذ الفاطمي في الحجاز بعد سيطرتهم على مصر في سنة ٣٥٨هـ، وما تلاها من ضعف السلطة العباسية، وتذبذب سيطرتها على الحرمين الشريفين، ولا شك أن الأصل في وظيفة الإمامة ما كان يقوم به الوالي لمكة المكرمة، أو القاضي في العصر الأموي والعباسي الأول، من إمامة الناس في جميع فروض الصلاة والوقوف بهم في عرفة(٧٢). ثم أسندت بعد ذلك إلى إمام واحد يستمد دعمه المادي والمعنوي من الخليفة في بغداد، ويختص بالصلاة في المسجد الحرام عند مقام سيدنا إبراهيم الخليل أسوةً بما فعله الرسول ﷺ في عام الفتح، ولأن في ذلك سترة ثابتة للصلاة خلفها(٧٣).

ظهور المقامات في المسجد الحرام قد جاء مع بداية تنامي النفوذ الفاطمي في الحجاز

ويبدو على ما صرح به ابن جبير أن هذا العرف ظل مرعياً في المسجد الحرام عند زيارته لمكة المكرمة في سنة ٥٨٠هـ، حيث قال: "فأول الأئمة السنية الشافعي رحمه الله، وإنما قدمنا ذكره؛ لأنه المقدم من الإمام العباسي"(٧٤). وكان مركزاه المادي والمعنوي يتأثران سلباً وإيجاباً بوصول الركب العراقي الذي اعتاد أن يحمل معه إلى أهل الحرمين والمجاورين بهما، وإلى أرباب الوظائف في كل سنة (٣٠٥٤٢٠) ديناراً(٧٥)، ولئن كان هذا الركب قد تأثر بالأحداث التي

(٧٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٥١ وما بعدها. الجزيري، عبدالقادر بن محمد (ت٩٧٤هـ)، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م، ص٢٣٤ - ٢٥٩.

(٧٣) البخاري، المصدر السابق، كتاب الصلاة، باب سترة الإمام سترة من خلفه، الحديث رقم ٤٩٤، ص١٠٤.

(٧٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص٧١.

(٧٥) الجزيري، عبدالقادر، المصدر السابق، ص٢٢٢.



شهدها الحجاز منذ أوائل القرن الرابع الهجري، فإن أهل الحجاز قد تأثروا بانقطاع رزقهم المعتاد في الأعوام الآتية: ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٧١، ٣٨٠، ٣٨٤، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤١٥، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٧، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٨٦، ٤٨٧، ٥١٦، ٥٣٠، ٥٣٢هـ[٧٦].

وإذا قدر لهذا الركب أن يصل إلى مكة المكرمة، فكثيراً ما كان يصطدم بالحجاج المصريين المدعومين في عهد الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٧هـ) بالنفوذ القوي للأشراف الموالين لها من حكام مكة المكرمة والمدينة المنورة، أو ربما نهب الركب في طريقه إلى مكة أو عند عودته منها؛ إذا لم تكن المبالغ المقدمة من الدولة العباسية لشيوخ القبائل التي تحمي في العادة طريق الركب مقنعة[٧٧]؛ لما يقومون به من دور.

ولا أدل على تدني الأحوال المادية لموظفي المسجد الحرام نتيجة هذا الانقطاع من بساطة عبارات التأبين المسجلة على الشاهد الذي ندرسه، الذي كان صاحبه أحد موظفي الدولة العباسية، حيث كان يؤم بأتباع المذهب الشافعي في المسجد الحرام من ٥٩٨ - ٦٠٤هـ، خاصة إذا عرفنا أنه من أهل العراق، وأنه جاور بمكة لأكثر من خمسين سنة، لم يكتسب فيها كما يبدو من عبارات الشاهد مالاً يبرز مكانته الاجتماعية، حيث عرف من ترجمته أنه من الصوفية[٧٨] الزاهدين في الدنيا وبريقها.

---

(٧٦) الفاسي، الشفاء، ج٢، ص٣٤٦ - ٣٦٥. الجزيري، عبدالقادر، المصدر السابق، ص٢٣٤ - ٢٥٩.

(٧٧) الفاسي، الشفاء، ج٢، ص٣٥٥. الجزيري، عبدالقادر، المصدر السابق، ص٢٤٩. ماجد، المرجع السابق، ص٢٢١ - ٢٢٤.

(٧٨) الفاسي، العقد، ج٢، ص١٤٧.

ويتقوى هذا الظن بقول ابن جبير عن الإمام الحنفي المدعوم من غير الدولة العباسية: "إنه أعظم الأئمة أبهة وأفخرهم آلة من الشمع وسواها"(٧٩)، أما الإمام الذي ترعاه الدولة، وتدعم أتباعه فلا أقل من أن نقول: إنه يعكس حالها الضعيف، وحال الشاهد الذي تتأثر ألفاظه في العادة بغنى أو فقر المتوفى(٨٠)، فضلاً عن مكانته الاجتماعية والوظيفية.

الدراسة الوصفية

للوقوف على الإمكانيات المتواضعة لمتهني نقش شواهد القبور في منطقة الحجاز - قبل كتابة هذه الشاهد المؤرخ سنة ٦٠٤هـ وبعده - يجب الإلمام بوصف مفصل للشاهد الذي اختير لمجرد أن له سطحًا أملس يصلح للكتابة، فهو حجر بازلتي أسود اللون، من الأحجار المألوفة في جبال مكة المكرمة، كالتي نقشت عليها معظم الشواهد التي تضمنها المجلد الذي أصدرته وكالة الآثار والمتاحف بوزارة التربية والتعليم عن أحجار المعلاة الشاهدية، وهو أقل جودة من الرخام الذي يندر وجوده في أرض الحجاز بأكملها، وارتفاعه في أطول أجزائه ٩٠ سم، وعرضه في أوسع أجزائه ٤٦ سم، وجزؤه السفلي أعرض من العلوي، وسمكه في أعلاه ١٥ سم، وفي وسطه ٢٥ سم، وفي أسفله ٢٠ سم. وظهره محدب، وحجمه كبير بحيث يصعب نقله من موضعه إلا بتعاون رجلين قويين(٨١).

وله وجه أملس صالح للكتابة، قسم الجزء المخصص للنقش ثلاثة أقسام غير متساوية، يتميز الأعلى منها بكبر مساحته، فطوله ٢٠ سم

(٧٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص٧١.

(٨٠) شافعي، فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية في عصر الولاة ٣١ - ٣٥٨هـ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص٥٥١.

(٨١) يوجد عند أحد الهواة لجمع التحف والآثار بمكة المكرمة.



وعرضه ٣٥ سم، ويعلوه زخارف نباتية مورقة، تملأ كوشة العقد[٨٢] المدبب، الذي يعلو البسملة وسطرين من العبارات التأبينية، التي تبشر المتوفى برحمة الله ورضوانه (شكل رقم ١ والصورة رقم ٥).

أما القسم الأوسط فأقل الأقسام مساحة ٢٠ سم في عرض ١٠ سم، وهو أشهر الأقسام التي يتألف منها الشاهد، وأميزها حفاوة بالنقش، فعباراته محددة جداً، وخطه مختلف عما في الجزئين العلوي والسفلي من الشاهد، فقد كتب بالخط الكوفي الغليظ، وذلك في كلمات ثلاث تشير إلى صاحب القبر، وتصفه بالشيخ، أما كلمة الصالح التي جاءت بعد الكلمة السابقة مباشرة فقد ضاق بها السطر الخامس، فكتب الألف بالخط الكوفي وبقية الكلمة بخط النسخ في وسط السطر فوق كلمة الشيخ، وذلك بخط صغير يشبه الخط المستخدم في بقية أسطر الشاهد (الصورة رقم ٥).

وتأتي مساحة القسم الثالث من الشاهد في المرتبة الثانية، فطوله ٢٠ سم، وعرضه ١٥ سم، وهو أكثر أقسام الشاهد كتابة، ففيه أربعة أسطر بخط نسخي جميل، تذكر اسم المتوفى وكنيته ونسبه وعمله في المسجد الحرام، ثم تاريخ وفاته في آخر السطر الرابع.

ويحتوي الشاهد بأقسامه الثلاثة على معظم العناصر التي يتكون منها شاهد القبر الإسلامي، وبه إحدى وأربعون كلمة نظمت في تسعة أسطر غير متساوية، فيما يحتويه كل سطر من الكلمات التي تكون الشاهد، كما أن بعض الكلمات والحروف خرجت عن موضعها الحقيقي كغيرها من الكلمات في بعض الشواهد[٨٣]، وذلك نتيجة توسع النقاش في حفر الكلمات التي ضاق بها السطر، الأمر الذي

(٨٢) كوشة العقد: هي المساحة الواقعة على جانبي العقد وأعلاه، وهي ما يسميه فريد شافعي واجهة البائكات. انظر: شافعي، المرجع السابق، ص٢١٧. غالب، المرجع السابق، ص٣٢٩.

(٨٣) جمعة، المرجع السابق، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

دعاه إلى نقشها بين السطر الذي تنتمي إليه، والسطر الذي يعلوها، كما في كلمة الصالح من السطر الخامس، وحرف النون من كلمة رضوان في السطر الثالث، وخروج جزء من حرف الواو في كلمة رضوان عن الإطار الأيسر للشاهد، واختفاء الألف الواقعة بين الواو والنون في كلمة رضوان.

وبالشاهد آثار تلف مُحدَثَة، أخفت بعض الكلمات والحروف التي عُرِف معناها من السياق الذي تأكد بالمعلومات التي نقلها الفاسي من الشاهد حين كان في موضعه من مقبرة المعلاة(٨٤)، في القرن التاسع الهجري. وفيما يأتي المحتوى التأبيني لعبارات الشاهد التي كتبت كما قلنا بنوعين من الخط، وبعبارات بسيطة جداً.

١ - بسم الله

٢ - الرحمن الرحيم

٣ - يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان

٤ - وجنات لهم فيها نعيم مقيم

٥ - هذا قبر الشيخ الصالح

٦ - الزاهد العابد أبي عبدالله محمد

٧ - بن محمد بن علوان التكريتي إمام مقام

٨ - إبراهيم توفي [يوم](٨٥) الأحد ثالث عشر شعبان

٩ - من سنة [ستـ]ـمئه(٨٦) [وأ](٨٧) ربع

(٨٤) الفاسي، العقد، ج٢، ص١٤٧.

(٨٥) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٧.

(٨٦) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٧.

(٨٧) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٧.



التحليل والمقارنة

أولاً: التحليل

تضمن النقش المدون على الشاهد البسملة، وآية تناسب المقام من سورة الفتح[٨٨]، كما هو المألوف في معظم الشواهد الإسلامية التي تُضَمّن عبارات الشاهد آيات من القرآن الكريم، كالشهادة لله عز وجل بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة[٨٩]، أو الإقرار بما في سورة آل عمران من وقوع الموت على كل نفس[٩٠]، أو كتابة آية الكرسي من سورة البقرة على بعض الشواهد في القرن الثالث الهجري[٩١]، وكان ذلك شائعاً في مختلف الأقطار الإسلامية[٩٢]، ولعل آخر شاهد ورد في تراجم المكيين عند الفاسي وبه شيء من هذا المعنى مؤرخ في سنة ٧٥٦هـ[٩٣] .

ثم ذكر في السطر الخامس أنه "قبر الشيخ الصالح"، والشيخ لقب يقصد به في اللغة الطاعن في السن[٩٤]، وكان وما يزال يطلق عرفاً على العلماء وكبار رجال الدولة[٩٥] . وقد ظهر في شاهد قبر لأحد العلماء من المشرق في القرن الثالث الهجري، وآخر من جزيرة العرب في القرن الخامس الهجري[٩٦]. وكلمة "الصالح" من الصلاح الذي يجب أن يتحلى به كل مسلم، فضلاً عن العلماء الذين هم أكثر الناس خشية لله تعالى.

(٨٨) الآية رقم ٢١.
(٨٩) جمعة، المرجع السابق، ص ١٤٧، ١٥٠، ١٧٦.
(٩٠) الآية رقم ١٨٥.
(٩١) جمعة، المرجع السابق، ص ١٧٠، ١٧٣.
(٩٢) غالب، المرجع السابق، ص٢٣٣.
(٩٣) الفاسي، العقد، ج٣، ص٢٤٠.
(٩٤) ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، دار بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ج٣، ص٣١.
(٩٥) الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ٣٨٧، ٣٩٥.
(٩٦) الباشا، المرجع نفسه، ص٣٩٥.

أما كلمة "الزاهد" التي جاءت في أول السطر السادس فتعني من أعرض عن الدنيا وزخرفها، فلم يلتفت إليها وابتعد عنها، وقد وردت في نقوش مختلفة في زمانها ومكانها، الأول منها في سنة ٢٣٠هـ من طشقند، والثاني في سنة ٢٤٥هـ من مدينة الفسطاط لذي النون المصري، والثالث في سنة ٥٠٠هـ من جزيرة العرب، والرابع من سوريا في سنة ٥٠٧هـ[٩٧].

وتختص كلمة "العابد" التي جاءت في النقش بعد كلمة "الزاهد" مباشرة بأهل التقوى والصلاح، وقد جاء في بعض كتب التراجم التي فصلت حياة صاحب الشاهد أنه قد درس في بغداد، وأقام في أحد الأربطة المشهورة فيها قبل قدومه إلى مكة مجاوراً في حدود سنة ٥٤٤هـ[٩٨]، وقد ظهرت كلمة العابد في شواهد عدة، منها قبر ذي النون المصري سنة ٢٤٥هـ، كما شملت أيضاً في العصر المملوكي من يتصف بالصلاح والتقوى[٩٩] من العسكريين ورجال الدولة المشهورين.

أما كنيته فقد سبقت اسمه في نهاية السطر السادس، حيث كني "بأبي عبدالله"، وهو عُرْفٌ عربي قديم، أقره الرسول ﷺ، وحث أمته عليه[١٠٠]، وطبقها المسلمون فور علمهم بمشروعيتها، وما زالوا حتى اليوم، في مختلف العالم الإسلامي وخاصة في الجزيرة العربية، على هذه السنة النبوية الشريفة.

أما اسمه فمركب من اسمه واسم أبيه، فهو "محمد بن محمد"، وله أمثلة كثيرة في كتب التراجم، خاصة المكيين الذين ترجم لهم

(٩٧) المرجع نفسه، ص٣٩٥.

(٩٨) المنذري، زكي الدين أبو محمد عبدالعظيم (ت٦٥٦هـ)، الهداية لوفيات النقلة، ط٢، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج٢، ص١٣٩.

(٩٩) الباشا، المرجع السابق، ص٣٠٩.

(١٠٠) البخاري، المصدر السابق، كتاب الأدب، باب الكنية، الحديث رقم ٦٢٠٣، ص١٣١٤.



الفاسي من القرن الأول الهجري وحتى القرن الثامن[١٠١]. والتكريتي نسبة إلى بلدة تكريت من مدن العراق، وقال عنها ياقوت الحموي: "إنها بلدة مشهورة بين بغداد والموصل مشرفة على دجلة من الغرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً"[١٠٢].

ويبدو أنه نزح إليها بمفرده أو صحبة أسرته من موطنهم الأصلي قرية الحوط، من أعمال حمص أو قرى جبلة[١٠٣]، ثم انتقل منها إلى بغداد، ثم إلى مكة المكرمة التي عاش فيها مجاوراً أكثر من خمسين سنة[١٠٤]، شغل في آخرها بعض وظائف المسجد الحرام، وخلف أسرة لم نعرف من أفرادها إلا ابنه عبدالرحمن الذي دفن في مقبرة المعلاة في سنة ٦٤٤هـ[١٠٥]، وترجم له الفاسي في العقد الثمين، ووصفه بالشيخ الصالح، وقال: إنه نقل تاريخ وفاته من شاهد قبره القائم في حدود سنة ٨٣٢هـ.

وكلمة "إمام" التي جاءت قبل الكلمة الأخيرة في السطر السابع لها في القرآن الكريم أكثر من معنى[١٠٦]، تدل في مجملها على القدوة الحسنة والعمل الخير، وكان استخدامها في الدلالة على وظيفة الإمامة في الصلاة قد ظهر مع ألقاب أخرى في شاهد قبر من طشقند في سنة ٢٣٠هـ، وفي شاهد من مصر في سنة ٤٠٣هـ، وآخر من جزيرة العرب مؤرخ في سنة ٥٠٠هـ. ثم تتابعت في شواهد من بلدان مختلفة، كانت في معظمها معاصرة للشاهد الذي ندرس

(١٠١) الفاسي، العقد، ج٢، ص٢٦٧ وما بعدها.

(١٠٢) الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، دار بيروت، ج٢، ص٣٨.

(١٠٣) المنذري، المصدر السابق، ج٢، ص١٣٩.

(١٠٤) الفاسي، العقد، ج٢، ص١٤٧.

(١٠٥) الفاسي، العقد، ج٥، ص٣٧٥.

(١٠٦) سورة البقرة، آية ١٢٤، سورة هود، آية ١٧، سورة الحجر، آية ٧٩، سورة الفرقان، آية ٧٤، سورة يس، آية ١٢، سورة الأحقاف، آية ١٢.

خصائصه في هذه الدراسة. فقد وجد لفظ الإمام في نقشين من مصر، أحدهما مؤرخ في سنة ٥٩١هـ، والآخر في سنة ٦٢٢هـ[١٠٧]. ثم تعددت استخدامات هذا اللفظ في العصر المملوكي، حتى خرجت عن مدلولها الأول[١٠٨] إلى معنى قوة الملك واتساع السلطان.

و"المقام" الذي نسبت الوظيفة إليه في الشاهد هو مقام سيدنا إبراهيم الخليل الموجود منذ رفع إبراهيم الخليل عليه السلام قواعد الكعبة، وسيظل إن شاء الله تعالى رمزاً لشعيرة من شعائر المسلمين حيث أمر الرسول ﷺ في حجة الوداع بالصلاة عند موضعه، وكان القرآن موافقاً في ذلك لرأي سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١٠٩]، ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[١١٠]، فجعله الرسول ﷺ بينه وبين الكعبة[١١١].

وفي موضعه قبل الإسلام اختلاف، أما موضعه الحالي فعليه الإجماع بأن سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثبته في هذا الموضع بعد استشارة كبار السن من أهل مكة آنذاك[١١٢]. ومنهم من كان يخشى الاختلاف في موضعه، فقاس بعده عن الكعبة وحفظه في بيته حتى احتيج إليه عند فقدانه في السيل الذي أصاب مكة سنة ١٧هـ[١١٣].

والمقام حجر رخو مربع من نوع حجر الماء لونه بين البياض والسواد والصفرة، تتساوى أبعاده في الطول والعرض والارتفاع،

(١٠٧) الباشا، المرجع السابق، ص ١٧٠ - ١٧٢.

(١٠٨) المرجع نفسه، ص ١٧٠ - ١٧٢.

(١٠٩) البخاري، المصدر السابق، كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة، الحديث رقم ٤٠٢، ص٨٧.

(١١٠) سورة البقرة آية ١٢٥.

(١١١) باسلامة، المرجع السابق، ص ١٨٩، ٢٠٠.

(١١٢) المرجع نفسه، ص ١٨٩، ٢٠٠.

(١١٣) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد (ت٢٢٣هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي ملحس، ط٢، مكة المكرمة، دار الثقافة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج٢، ص٣٣.



وتقارب الخمسين سنتيمتراً[١١٤]، وفي وسطه أثر قدمي سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وهما حفرتان على شكل بيضاوي مستطيلتان، قد حفرهما الناس بمسح الأيدي عليهما، ووضع ماء زمزم فيهما مرات عدة، فنتج عنهما اختفاء أثر القدمين، وتحول موضعهما إلى حفرتين عميقتين، تظهر بينهما أصابع سيدنا إبراهيم وأخمص قدميه الشريفتين[١١٥] (الصورة رقم ٢).

وقد رمم مرات عدة، أولها في عهد الخليفة العباسي محمد المهدي (١٥٨ - ١٦٩هـ)، وأشهرها في عهد المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) الذي أرسل ثمانية آلاف مثقال من الذهب وسبعين ألف درهم من الفضة لشد ما تصدع منه. ثم رمم مرة أخرى سنة ٢٥٦هـ بأطواق من الذهب والفضة في خلافة المهتدي العباسي (٢٥٥ - ٢٥٦هـ)[١١٦]. وتتابعت الترميمات لما تصدع منه وللسياج الذي أحيط به، وقد جاء في بعض المصادر أن عليه في سنة ١٣٢٧هـ قبة بأربعة أعمدة أحاطت بها مقصورة من النحاس، طول كل ضلع منها ٣,٦٠م، في داخلها الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم الخليل عند بناء الكعبة[١١٧] (الصورة رقم ٣).

وقد أُبدل في العهد السعودي بغطاء مثمن من الزجاج والمعدن المطلي بالذهب على قاعدة من الرخام (الصورة رقم ٤). وموضعه اليوم كما كان في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، على ما وصفه كثير من العلماء، فهو شرقي الكعبة المشرفة، على يمينه الركن العراقي، وعلى يساره الباب والحجر الأسود، وبينه وبين منتصف الجدار الشرقي من الكعبة حوالي عشرة أمتار ونصف المتر[١١٨] تقريباً.

(١١٤) باسلامة، المرجع السابق، ص٢٠١.

(١١٥) المرجع نفسه، ص٢١١.

(١١٦) الفاسي، الشفاء، ج١، ص٣٢٨. باسلامة، المرجع السابق، ص٢٠٣ - ٢٠٤.

(١١٧) البتنوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية سنة ١٣٢٨هـ، ط٢، القاهرة، المطبعة الجمالية، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، ص١٢٤.

(١١٨) باسلامة، المرجع السابق، ص٢٠٣، ٢٥٩، ٢٦٠.

وقد ظل المقام موضعاً لمصلى الأئمة في المسجد الحرام في فجر الإسلام وصدره، عندما كان الناس يصلون وراء إمام واحد، لوجود شاخص يتقدم الإمام، ويحول دون قطع الصلاة. فلما ظهرت المذاهب السنية الأربعة، واشتدت دعوة الخوارج، وشاعت أقوال المعتزلة والمرجئة، وذاعت مذاهب الشيعة التي وجدت لها في مكة من يناصرها(١١٩) وُجدتْ المقامات التي استمرت رغم إنكار كثير من العلماء لوجودها في الحرمين الشريفين، وقالوا بكراهيتها؛ لإظهارها الاختلاف والفرقة بين المسلمين(١٢٠)، ولم يقدر على منعها من الحرمين وجمع الناس على إمام واحد في التراويح وجميع فروض الصلاة، إلا الملك عبدالعزيز رحمه الله تعالى(١٢١)، حيث أمر في سنة ١٣٤٣هـ بتطهير الديار المقدسة من هذه البدع.

ثانياً: المقارنة

اخترت للمقارنة بين محتوى الشاهد موضع الدراسة المنقوش سنة ٦٠٤هـ، وغيره من الشواهد المكية نماذج منتقاة من محتوى المجلد الذي صدر عن وكالة الآثار والمتاحف بعنوان: "أحجار المعلاة الشاهدية بمكة المكرمة"، وما درس من النقوش التأسيسية في منطقة مكة المكرمة.

وفضلت ما ينتمي منها إلى القرنين السادس والسابع الهجريين؛ لتكون المقارنة موحية بالتأثيرات المتأصلة محلياً، خاصة في مجال الزخرفة، ونوعية الخط، وتنظيم المفردات التأبينية، ولا سيما وقد نقش على بعضها اسم عبدالرحمن بن أبي حرمي.

وأول ما يستدعي الانتباه وجود قواسم مشتركة في جميع النماذج التي تحمل الأرقام الآتية، من محتوى المجلد المذكور: ٢٦٦، ٣١١، ٣٨٠،

(١١٩) المرجع نفسه، ص٢٠٣.

(١٢٠) المرجع نفسه، ص٢٥٩.

(١٢١) المرجع نفسه، ص٢٦٠.



٣٩٣، ٤١١ب، ٤١٩ب، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٩٧ب، ٤٩٨، ٥٠٧، ٥٢١، ٥٥٦، ٥٦٠. وذلك على النحو الآتي:

أولاً: اشتراكها مع النقش الذي يحمل عنوان هذه الدراسة في إبراز اسم المتوفى بخط غليظ يتوسط الشاهد أو يأتي في ثلثه الأخير، ويشير إلى المتوفى بعبارة: "هذا قبر الشاب...، أو الشيخ ... أو ابنة ... أو أم ... ". وقد تذكر بعض أوصافه أو وظائفه أو شيخوخته أو شبابه.

وقليل منها اشترك مع النص الذي ندرسه في تمييز هذه العبارة بخط كوفي يخالف بقية عبارات الشاهد التي كتبت كلها بالخط النسخي. ولهذه الظاهرة أمثلة نادرة في نقوش القرنين الرابع والخامس الهجريين، وكذلك الثامن والتاسع الهجريين.

ثانياً: اشتراك الشواهد المذكورة في حفر ما يحيط بجمل الشاهد وزخارفه؛ مما يجعلها منقوشة بالخط البارز، وهي طريقة مفضلة عند ممتهني نقش الشواهد المكيين.

ثالثاً: اشتراكها جميعاً في الخط النسخي المشكول. ومع أن أقدمها يعود إلى سنة ٥٤٩هـ، وآخرها إلى سنة ٧٠٨هـ، فإن نوعية الخط متماثلة إلى حد كبير؛ مما يؤكد قوة التأثير التي أحدثها الرواد من أمثال عبدالرحمن بن أبي حرمي المكي المتوفى سنة ٦٤٥هـ. والمنقوش اسمه في الجانب الأيمن من الشاهد رقم ٢٦٦، والمنفذ في القرن السابع الهجري. وكذلك في أعلى الطرف الأيسر من الشاهد رقم ٥٠٧، والمؤرخ سنة ٦١٦هـ. وفي الثلث الأخير من الشاهد رقم ٥٢١، والمؤرخ سنة ٦٢١هـ.

وقد امتهن هذا النقاش مع ولده وابنه وأخيه مهنة نقش شواهد القبور في القرن السادس الهجري. ومرد وصول بعض آثاره المنقوشة إلى مصر، المحفوظة الآن في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة[١٢٢]

(١٢٢) الفعر، محمد بن فهد، تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، مكتبة تهامة للنشر، جدة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص٣٦٣.

إلى قوة العاطفة الدينية التي تربط المصريين بكل ما هو مكي، ولا سيما التبرك بما ينتمي إلى الديار المقدسة أو يُهدى منها، مما يجعل من المحتمل نقشه لهذا الشاهد عند وصوله إلى مصر في حياته الطويلة التي امتدت لأكثر من مئة سنة، زار خلالها الشام والعراق(١٢٣) - وربما مصر - أو ربما نقش في مكة ونقل إلى مصر. ولا سيما أن بعض الباحثين يذهب إلى احتمال نقش بعض الشواهد قبل وفاة صاحبها اعتماداً على ما لحظه من مخالفة خط السطر الأخير الذي يحمل في بعض الشواهد اسم المتوفى وتاريخ وفاته(١٢٤).

أما من الناحية الزخرفية فقد لحظت توحدها في التصميم الذي يتألف من إطار واحد أو أطر عدة تحدد عبارات الشاهد. وقد يكون ببعضها كتابات أفقية أو عمودية نفذت بالخط النسخي، وتتوج في معظمها بعقود متنوعة يتدلى من أغلبها مشكاوات ذات أحجام وأشكال مختلفة.

وقد جاءت الزخارف التي تحيط بالعقود أو تشكل بعض الأطر التي تحيط بالشاهد متنوعة، فمنها الزخارف النباتية البسيطة التي قصد منها سد الفراغ دون حرص من النقاش على الأصالة والواقعية.

أما الزخارف الهندسية فقد كانت أكثر دقة، ولا سيما ما كان منفذاً منها في الشاهد رقم ٤٤٦.

رابعاً: تشترك معظم الشواهد المذكورة مع شاهد إمام المقام الإبراهيمي في عدم قدرة النقاشين في أغلب الأحوال على الالتزام بنقش الجمل والحروف بمقياس واحد؛ فنجد حروفًا وكلمات خرجت عن الإطار الذي يحدد عبارات الشاهد وجمله.

(١٢٣) الفاسي، العقد، ج٥، ص٤٠٠.
(١٢٤) الزهراني، مرجع سابق، ص٤٣٤.



وتتميـز فوق هذا بالصغر أو الكبر، وقد تكتب بغير الخط الذي التزم به النقاش كما في كلمة "الصالح" التي جاءت في وسط الشاهد بعد كلمة [هذا قبر الشيخ ...]. ولم يقتصر هذا على الشواهد المنشورة من قبل وكالة الآثار والمتاحف، بل إنها واضحة في النقوش التي قام أحد أعضاء هيئة التدريس بجامعة أم القرى بنشرها[١٢٥]، وخاصة ما ينتمي منها إلى القرنين السادس والسابع الهجريين.

وزاد من أهمية بعضها وجود اسم الخطاط المكي عبدالرحمن بن أبي حرمي في أحد جوانبها، وبمقارنة هذه النصوص مع الشواهد التي وجد في محتواها اسم النقاش ابن الحرمي فيما اخترناه من الشواهد التي نشرتها وكالة الآثار والمتاحف تبين وجود ثوابت تجعل من المقبول القول بأن النقش الذي ينتمي إلى إمام المقام في الحرم المكي من عمل الخطاط المكي عبدالرحمن بن أبي حرمي، وأبرزها:

١ - جمال الخط.

٢ - البدء بالبسملة، وآيات من القرآن الكريم.

٣ - تميز العبارة الدالة على صاحب القبر بخط غليظ.

٤ - وقوعه في خطأ تكرر كثيرًا في بعض الشواهد التي نقش عليها اسمه، ولا سيما تنظيم محتوى السطرين الأخيرين من الشواهد التي تحمل الرقم ٢٦٦، ٥٠٧.

الخصائص الفنية

من المعروف في تاريخ تطور الخط العربي أن سيادة الخط الكوفي التذكاري قد انتهت في أول العصر الأيوبي[١٢٦] مع استمرار الخط الكوفي التذكاري في الظهور حتى القرن السادس الهجري، حين بدأت الغلبة لسيادة الخط النسخي في بلاد فارس وما وراءها من

(١٢٥) الفعر، مرجع سابق، ص٤٣٠ - ٤٣١، ٤٣٤.

(١٢٦) جمعة، المرجع السابق، ص ٧٧، ٨٥.

البلاد الإسلامية، وكذلك مصر الأيوبية ٥٦٧ - ٦٤٨هـ، بالإضافة إلى بلاد الشام وأرض الحجاز.

ويدخل الشاهد الذي ندرس خصائصه الفنية في الإطار الزمني للعصر الأيوبي؛ لأن تاريخ نقشه يعود إلى سنة ٦٠٤هـ. وقد حوى نوعين من الخطوط الأصيلة في تاريخ الخط العربي في العصر الأيوبي، هما الخط النسخي والخط الكوفي التذكاري[١٢٧]، مما يعطي مجالاً للتعرف على خصائص الخطين الموجودين في الشاهد ومقارنتهما بمثيلاتهما في هذا العصر.

١ - وأولهما الخط النسخي الذي يعد الالتواء وعدم التركين من أبرز خصائصه[١٢٨]، وبالرغم من قدم استخدامه في الوثائق والمراسلات الخاصة والعامة فإنه لم يأخذ مكانته البارزة في كتابة الشواهد الإسلامية إلا في أوائل القرن السادس الهجري حتى صارت له الغلبة والسيادة على غيره من الخطوط في مصر الأيوبية، في حدود سنة ٦٣٥هـ[١٢٩] وما بعدها من العصر المملوكي.

وقد كتبت به معظم أسطر الشاهد الذي ندرس خصائصه الفنية، المؤرخ في سنة ٦٠٤هـ، وذلك باستخدام طريقة النقش البارز، وذلك بحفر ما حول الحروف التي تضم عبارات الشاهد، وقد عمد النقاش إلى هذه الطريقة بعد أن حدد الإطار الذي يحيط بالنقش مع رسم عقد مدبب في أعلاه، ثم حاول جاهداً ملء كوشة العقد بزخارف نباتية بارزة تتمثل في فروع ملتوية تخرج من بعض أطرافها أوراق

(١٢٧) فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها في العصر الأيوبي، القاهرة، دار المعارف، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص١٣.

(١٢٨) غلام، يوسف محمود، الفن في الخط العربي، الرياض، وزارة المعارف، مديرية الآثار والمتاحف، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٣٣.

(١٢٩) جمعة، المرجع السابق، ص ٢٢٩، ٢٣٩. البابا، كامل، روح الخط العربي، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ص ٦٨ - ٦٩، ٧١.



منحنية، وفي نهاية كل منها زهرة غير متفتحة. (الصورة رقم ٥ والشكل رقم ١).

وقد حاول رسم مثل هذه الأوراق والزهور في أماكن متفرقة داخل العقد، وخاصة على يمين البسملة وعلى يسارها؛ لملء الفراغ الظاهر في هذا الجزء من الشاهد، إلا أنها جاءت ساذجة وفي درجة بسيطة من الإتقان، خاصة إذا ما قورنت بما نقش على بعض الشواهد من زهور وورود تمثل الأصالة في الزخرفة الإسلامية. (الشكل رقم ١).

أما الخط النسخي الذي حُفر في داخل الإطار الذي أحاط به فقد شُكلت معظم حروفه على خلاف ما كان في الشواهد التي كتبت بالخط الكوفي، ومما لا شك فيه أن هذا التشكيل قد أضاف إلى النقاش كثيرًا من المعاناة، ولا سيما أن الطريقة التي اعتمدها في نقش الشاهد تطلبت منه استئصال طبقة خفيفة من السطح المحيط بالكتابة وشكلها وأحجامها. (الصورة رقم ٥).

٢ - وثانيهما الخط الكوفي الذي اقتصر ما خط به على الإشارة إلى صاحب القبر في سطر واحد فيه أربع كلمات فقط، نصها كالآتي: "هذا قبر الشيخ الصالح"، وقد جمع بين الخط الكوفي بزواياه القائمة، وخطوطه المستقيمة المتوازية والأفقية والعمودية، وبين أحرف الخط النسخي التي تخالف القاعدة السابقة، فتظهر مدورة أو مائلة، كما في حرف الراء والصاد واللام والحاء، وهو ما نجده في الخط الكوفي الفاطمي الذي وصل إلى قمة التجويد في القرنين الرابع والخامس الهجريين[١٣٠].

وللمرء أن يسأل: لماذا لم يُكتَب الشاهد كله بهذه الطريقة التي أبدع فيها النقاش وأجاد، حتى إن العين لا ترى في المرة الأولى غير هذا الجزء من الشاهد؟ والجواب فيما أعتقد أن النقاش الذي لم

(١٣٠) جمعة، المرجع السابق، ص٨٤.

يذكر اسمه في آخر الشاهد وجد نفسه مضطراً إلى حصر الخط الكوفي في أشهر عبارة يحتاجها القارئ لمعرفة اسم المتوفى، وذلك لأمور منها:

١ - صغر المساحة الصالحة للنقش في الحجر المستخدم، إذ لو كتب النص كله بهذه الطريقة لاحتاج إلى مساحة لا تقل عن ضعف المساحة الموجودة.

٢ - عدم توافر الأحجار أو الرخام الصالح لمثل هذا النوع من الكتابة الغليظة.

٣ - كثرة العبارات اللازم تدوينها على الشاهد، التي يجب أن تضم العناصر المألوفة في الشواهد الإسلامية(١٣١)، وأهمها:

- البسملة.
- التعريف بالميت.
- ذكر الله عز وجل ورسوله ﷺ، والتبشير بالجنة ونعيمها.
- تاريخ الوفاة.
- الدعاء للميت.

وقد أضافت الكتابة بهذا النوع من الخط الكوفي على النحو الذي ذكرناه مسحة جمالية يدركها كل من دقق النظر في الصورة رقم (٥)، ولا سيما وقد جاءت في وسط الشاهد، فكانت أشبه باللؤلؤة التي تتوسط العقد، أو ما يعرف بالتطعيم أو التنزيل(١٣٢) المعروفين في

(١٣١) المرجع نفسه، ص٨٤.

(١٣٢) التطعيم: هو تحضير قطع مسطحة ومصقولة من عاج أو عظم أو صدف، وإعطاؤها شكل رسوم معدة مسبقاً، وحفر الشكل نفسه في الأدوات والصناديق وما شابهها، وتنزيل قطع الزخرفة فيها. والتنزيل: حفر سطح القطعة أولاً، ثم ملؤها بمادة أخرى أو بلون آخر كالرخام والعاج في الخشب، وبشرائط الذهب في أوعية الفضة، وبالصدف في قطع الفسيفساء. انظر: غالب، المرجع السابق، ص ١٠٦، ١١٠.



صناعة الخشب والمعادن الثمينة. وهو تقليد رأيته في بعض الشواهد المكيـة التي تعـود إلى آخـر القـرن السـادس وأوائل القـرن التـاسع الهجري مع اختلاف بينها في استخدام الخط الكوفي أو النسخي.

أما الزخرفة النباتية التي أحاطت بهذه العبارة المميزة من الشاهد فقوامها فرعان نباتيان يشكل كل منهما دائرة تملأ الفراغ الظاهر بين كلمـات السطر الذي نقش بالخط الكوفي، ولا تتـصل بأطراف الحروف، ولا تخرج من أرضيتها، كما في الخط الكوفي المزهر(١٣٣)، وبكل من الفرعين المذكورين عدد قليل من الأوراق المائلة، وينتهي كل منهما بزهرة غير متفتحة (الشكل رقم ١)، وليس في هذا كله جمال يستهوي المشاهد، كما أنها لا تنتمي إلى الأصول الراقية للزخرفة الإسلامية في هذا المجال.

وقد نُقشت بالطريقة نفسها التي نفذت في كتابة الشاهد كله، وهي الطريقة التي يبتعد عنها النقاشون المبتدئون لصعوبة تنفيذها وطول المدة التي يحتاجها المنفذ الذي يعمد أولاً إلى تهيئة مخطط ينفذ أولاً بالمداد المخالف للون السطح المراد نقشه، وذلك بتقسيمه إلى خطوط أفقية على مسافات متساوية، ثم تبدأ مرحلة الحفر باستئصال السطح الذي يحيط بالنص المكتوب على مستوى واحد من الحفر(١٣٤)، مع العلم أن الخطأ في هذه الطريقة فادح ومؤثر جداً.

وفي النهاية يحتاج النقاش إلى تسوية الزوائد بأطراف الحروف القائمة، حتى تبدو متساوية في السمك والطول، ثم إكمال ما نقص من الحروف والكلمات التي ضاقت بها بعض السطور وخاصة في آخرها.

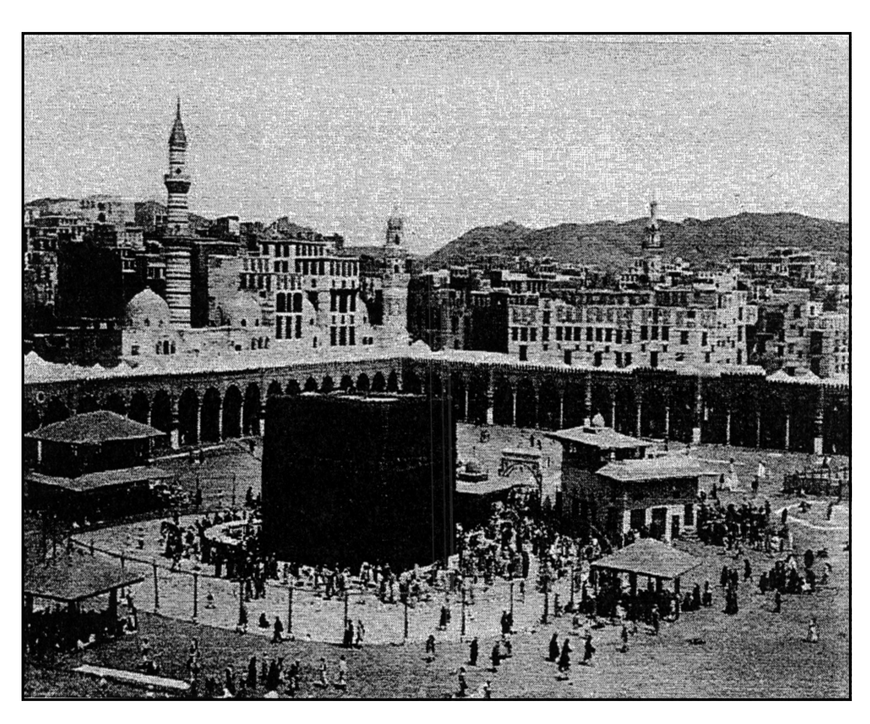
---

(١٣٣) جمعة، المرجع السابق، ص ٢٢٢. البابا، المرجع السابق، ص ٦٩، ٧١.

(١٣٤) جمعة، المرجع السابق، ص٨٥.

ملاحق البحث

١ - الصور

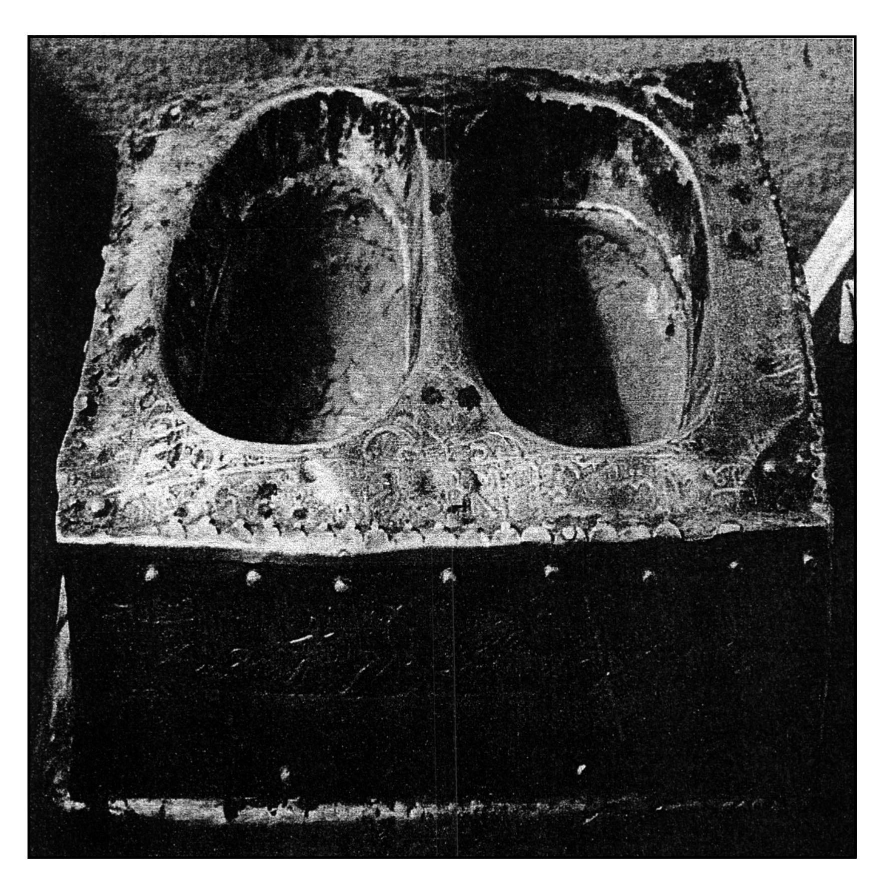


صورة رقم (١)

صورة المطاف في سنة ١٣٢٥هـ، وتظهر فيها المقامات الأربعة بأحجام ومساحات مختلفة، اقتطعت جزءاً كبيراً من المطاف.

(عن إبراهيم رفعت في مرآة الحرمين الشريفين)

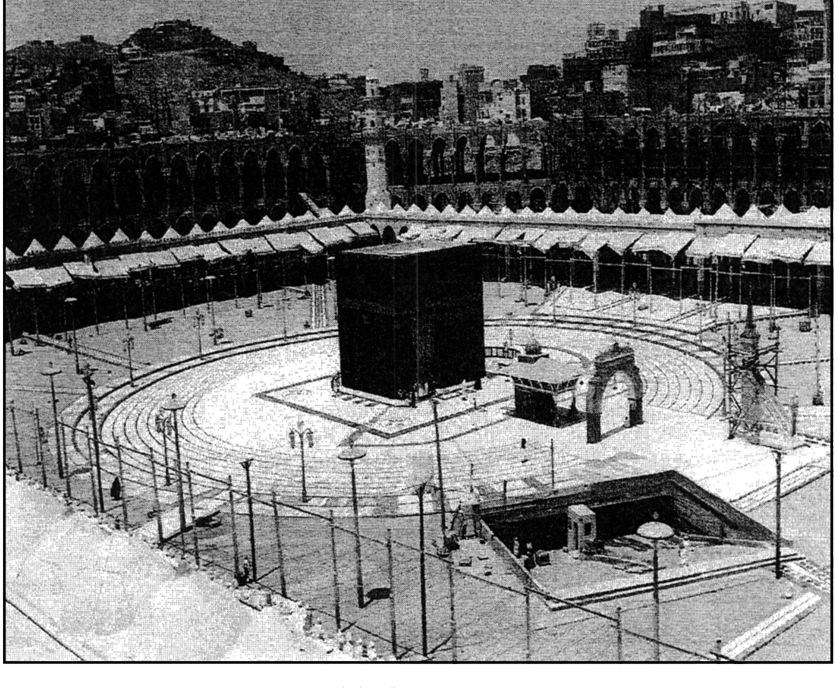
مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والثلاثون
الدارة



صورة رقم (٢)

صورة أخذت حديثاً لمقام سيدنا إبراهيم الخليل وتبدو فيها أثر القدمين على شكل حفرتين عميقتين.

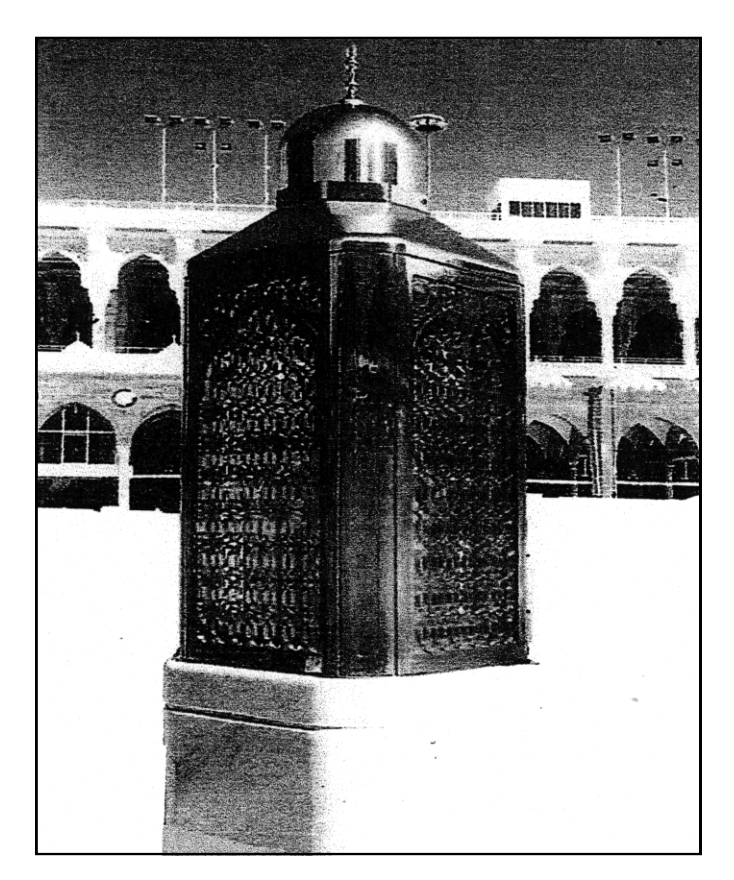
(عن قصة التوسعة الكبرى، لحامد عباس)



صورة رقم (٣)

صورة المقصورة التي بنيت حول المقام في العهد العثماني، وخلفها عقد من الحجر.

(عن قصة التوسعة الكبرى، لحامد عباس)

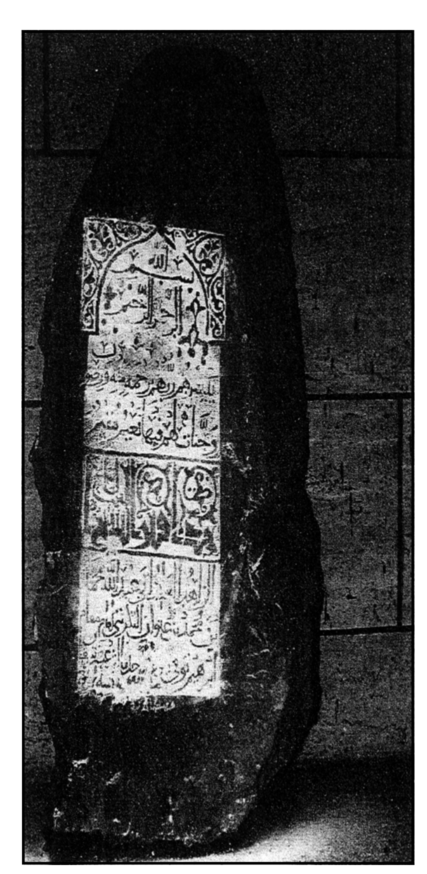


صورة رقم (٤)

صورة المقصورة التي أحاطت بالمقام في العهد السعودي

والتي قُصِد منها عدم شغل مساحة كبيرة من المطاف.

(عن الكعبة المشرفة والحرمان الشريفان، لعبيدالله محمد الكردي)

صورة رقم (٥)

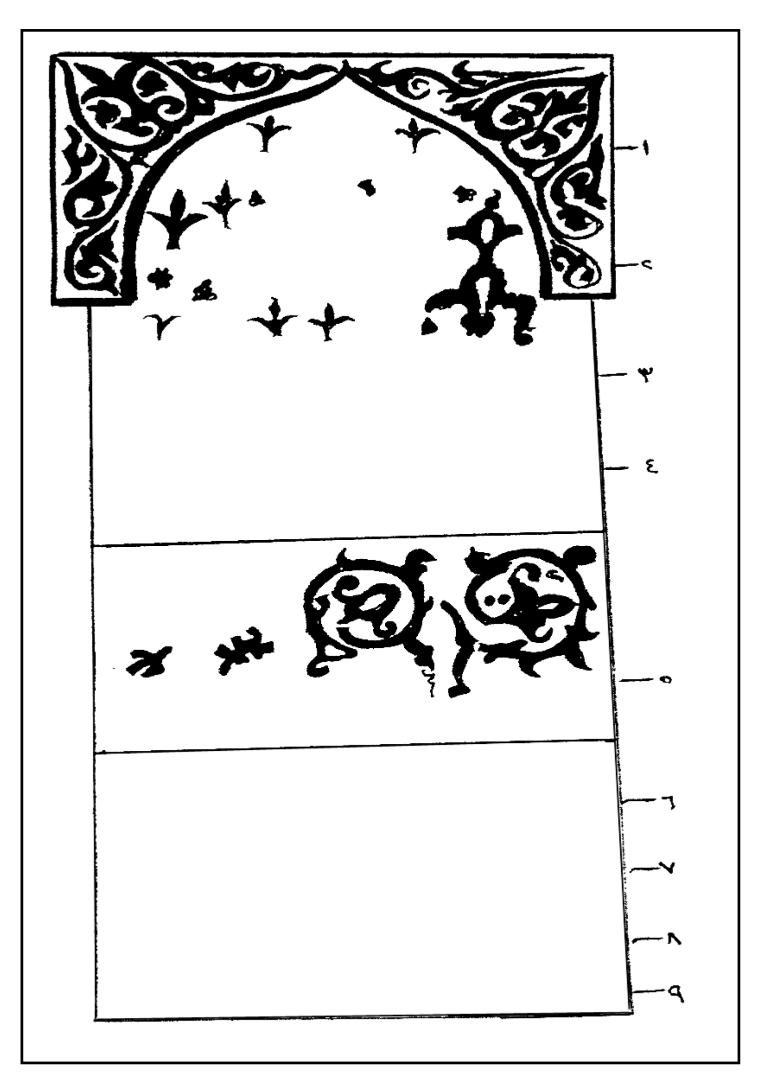
صورة شاهد القبر الذي كتب سنة ٦٠٤هـ، على حجر بازلتي أسود،

وتفريغ محتوى الشاهد

(من تصوير الباحث وعمله)



٢ - الأشكال



شكل رقم (١)

تفريغ الزهور والورود، التي رسمت بطريقة غير متقنة في أماكن مختلفة من الشاهد، بقصد ملء الفراغ الذي أخل بالشكل العام للشاهد.

(من عمل الباحث)

الأبجدية العربية	المفردة	المتصلة		
		أول الكلمة	وسط الكلمة	آخر الكلمة
آ				
ب ت ث				
ج ح خ				
د ذ				
ر ز				
س ش				
ص ض				
ع غ				
ف ق				
ك				
ل				
م				
ن				
و				
ي				
هـ				

شكل رقم (٢)

جدول لأشكال الحروف المبتدئة والمتصلة والمنتهية

(من عمل الباحث)

